تيسير اللغة العربية للناطقين بها، وللناطقين بغيرها

د. الطاهر خليفة القراضي

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى تشخيص الأسباب التي تكمن وراء استصعاب اللغة العربية بين الناطقين بها، والناطقين بغيرها. كما يسعى لإيجاد العلاجات التي يمكن أن تداوي هذه المعضلة. لقد أثبت هذا البحث أنّ هناك صعوباتٍ ومشاكلَ وعراقيلَ متعدِّدةً تتداخل وتشترك فيما بينها لترغم اللغة العربية على أنْ تنسحب من كل الميادين وتنكمش وتتقوقع على نفسها فيصيبها التأخر والتقلص والضمور من بين كل اللغات العالمية، فتبقى أسيرة المساجد والمصاحف والطقوس الدينية، وتتركَ المجالَ فسيحا أمام اللغات الأخرى لتحلّ محلّها فتغزونا وتطغى على لساننا لنتخلى لها عن لغتنا وهويتنا. لقد عدّد هذا البحث كثيرًا من تلك المشاكل، فوجد منها ما هو ناتجٌ عن الأنظمة الحكومية في الوطن العربي، ويرجع بعضها إلى التعلق بأهداب القديم وعدم السماح للغتنا بالتجدد والتجديد، ومنها ما هو ضَعْفٌ وتقصيرٌ من المؤسسات التعليمية في وضع التشريعات والسياسات الناجعة لخدمة اللغة العربية وتيسيرها أمام أبنائها وغيرهم ممّن يريدون أن يتعلموها قراءةً وكتابةً ومحادثةً، أو يتكلموها مشافهةً فقط، ومنها ما يتحمّل مسؤوليته مجامعُ اللغة العربية في كل الوطن العربي. ولا غرو أنّ الإعلام العربي بكل صوره وأشكاله (مرئيًا، ومسموعا، ومقروءًا) هو مَن يتحمل العبءَ الأكبر في عدم تعليم أبنائنا اللغة العربية الصحيحة السليمة. ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن اللغة العربية واحدة من اللغات الصعبة فهي تحتاج من أهلها إلى مَنْ وما ييسرها ويجعلها لغةً بسيطة إلى الحد الذي يُخرجها من أنها غُولٌ أمام أهلها فكيف يُقبل عليها غيرهم؟....إلخ.

وبعد أنْ تمّ تحديد وتجسيد أبعاد كل مشكلة، قدّم البحث ما رآه مناسبا من الحلول لكل معضلة على حدة. فما لم تتضافرْ هذه الحلول، وتتكاتفْ وتقفْ صفا واحدًا في وجه تلك المشاكل، فإن هذه اللغة سيصيبها المُواتُ المحقق، في الوقت الذي تتقدّم فيه اللغات الأخرى حثيثًا لتصبح هي الوسيلة الرائدة لكل العلوم والمعارف كما كانت العربية في يوم من الأيام. قبل أنْ يصلَ بها أهلها إلى ما وصلت إليه من التقهقر والتراجع.

بما أنّ اللغة العربية هي أحد مكوِّنات قوميتنا وهويتنا التي نعتزُّ بها، فإنَّ النهوض بهذه اللغة وتفعيلها لمواكبة التطورات العالمية، ولاستيعاب ما يستجد ويُستحدثُ من المكتشفات العلمية وما يُصاحبها من مسميات ومصطلحات. يُعدُّ حفاظا على قوميتنا وخدمةً لها حتى يصل أبناؤنا إلى المستوى المنشود من المعرفة التي لم يعد بالإمكان التغاضي عنها، أو عدم الالتفات إليها. يُضاف إلى ذلك أنَّ اللغة هي الوسيلة والمفتاح الوحيد لتَلقّي كلّ العلوم والمعارف، فاللغة يجب ألا يُنظر إليها على أنها علمٌ مستقلٌ عن غيره من العلوم والمعارف، بل إنها وسيلةٌ لفهم كلّ العلوم ونقلها بين المُعَلِّم والمُتَعَلِّم، أو المُعطي والمتلقي، وهي الوسيلة الوحيدة التي تُحفظُ بها المعارفُ والعلومُ لتنتقل من جيل إلى جيل، وهي الوسيلة التي ينتقل التراثُ عبرَها من السابق إلى اللاحق. فلولا اللغة لما وصلتْ إلينا علوم السابقين، وأخبارهم، ومعارفهم، وعلومهم، ولولا اللغة لما استفدنا من سابقينا، ولولاها لن نكون قادرين على أن نفيدَ لاحقينا.

إنَّ العولمة والتقدم العلمي الحديث، ومعطيات العصر أمورٌ متكاتفةٌ تدعونا وبإلحاح إلى ضرورة تمكين اللغة العربية من الانخراط في المنظومة العالمية أخذًا وعطاءً، وقَبولا واستجابةً؛ ذلك أنَّ اللغات هي وسيلة الاتصال والتواصل بين الشعوب والثقافات، وبين الأديان والحضارات، فما لم تكن لغتنا العربية قادرةً على التفاعل مع غيرها من اللغات، فإنَّ أبناءَها ومتكلميها لن يكونوا قادرين على التواصل والتفاعل

مع غيرهم. ومن ثمَّ، يتقدّم العالَمُ حثيثًا من حولنا، ونبقى نحن في نقطة البداية ما لم نتراجع إلى الخلف. فإذا أردنا لأمتنا العربية أن تتقدم وتزدهر، وأن تشقَّ طريقها في عالم المعرفة اللامحدودة، وفي عالم تتسابق فيه الأمم والثقافات والحضارات لإدراك الأفضل، والوصول إلى أسمى المراتب والدرجات، فإنَّه لا بُدَّ لنا من الاعتزاز بأنفسنا وبقوميتنا واحترام هويَّتنا. فإذا ما وصلنا إلى هذه الدرجة من الإيمان بالذات والهوية والقومية، فإنَّ ذلك يتطلب منا الحفاظ على لغتنا وعدم النظر إليها بنظرة دونية أمام اللغات الأخرى، كما يتطلب منا أن ننهض بلغتنا ونخلّصها مما يشوبها من الشوائب، والظواهر التي قد تكون عائقا لها في سبيل رقيِّها وتقدّمها، كما يجب علينا أن نزيح عن طريقها كلَّ العراقيل، والعوائق التي تعوقها من أن تكون في مقدمة اللغات العالمية، ويجب علينا أيضًا أن نوفِّرَ للغتنا كلَّ السبل التي من شأنها تهذيب اللغة وتحسينها وتجويدها وتبسيطها، حتى نتمكن من النهوض بها، بل والرقِّي بها إلى مصاف اللغات التي تتقاسم العالم معرفةً، وحضارةً، وثقافةً، وأدبًا، وعلمًا.

إن اللغة ـ أي لغة ـ لا يمكن لها أن تنتشر إلا إذا توفّرتْ لها معطيات محددة تجعلها قابلة للانتشار، وتجعل غير متكلميها مقبلين عليها راغبين فيها، أو مرغمين عليها. فغياب هذه العوامل والمعطيات يشكّل عقبات تقف في وجه اللغة وتمنعها من الانتشار. وهذه العقبات هي:

١ ـ لغة الضعيف والمستهلك :

إن لغة المنتصر هي اللغة التي تسود، وتنتشر، وتطغى، وتسيطر على لغة المغلوب الذي لا مناص له من أن يتلقى لغة المنتصر، ويتقبلها راغبًا فيها أو مرغمًا عليها. والمنتصر هنا لا يعني فقط المتفوّق عسكريًّا، أو قتاليًّا، أو بالقوة والسلاح، بل إنّ المنتصر هو المتقدم علميًّا واقتصاديًّا وصناعيًّا إلخ... ولذلك فإن اللغة العربية ليست مؤهّلة للانتشار؛ لأنها ليست لغة القوي عسكريا، ولا علميا، ولا اقتصاديا، ولا صناعيا. فنحن ـ العربَ ـ أضعف أمة على وجه الأرض حاليًّا من حيث القوة العسكرية والتسليح والمقدرة على الحروب إلى درجة أنّ الصهاينة شُذّاذ الآفاق يحتلون أرضنا ويستبيحون عرضنا ونحن لا نحرّك ساكنًا. فلماذا يُقبِل الآخرون على لغتنا العربية لغة المهزومين وما الذي يغريهم بها، أو يرغمهم عليها؟؟؟ ثم إننا نحن العرب أمّةٌ مستهلكةٌ تستهلك ما ينتجه الآخرون، ولسنا أمةً منتجةً حتى نسمّي منتجاتنا ومستحدَثاتنا كيفما نشاء، ونمنحها من الأسماء ما نشاء، ليُقبِل عليها الآخرون طوعًا أو كرهًا؛ وما دام الذي يلد المولودَ هو الذي يمنحه ما يشاء من الأسماء، فإنّ الذي لا ينتج ليس له الحق في أن يمنح اسمًا لذلك الإنتاج إلا إذا كان من لا يلد هو صاحب الحق في تسمية مولودِ غيرِه. والعرب أمّةٌ قادرةٌ على الاستهلاك وبكفاءة عالية، ولكنها مكبلة الأيادي من حيث الإنتاج؛ لأنها لا تملك العلم، ولا الاقتصاد، ولا الصناعة، ولا التقنيات الحديثة (وهذا يذكرنا بمقال ساخر كتبه الناقد العراقي محسن العبيدي الصفار أوضح فيه أننا ـ نحن العرب ـ لا نستطيع أنْ نعمل، أو نتحرك، أو نعيش دون استعمال أو استهلاك ما ينتجه الآخرون (غير العرب). وختم المقال بقوله « هل يُعقل أننا كعرب ليس هناك شيءٌ واحدٌ نستعمله، ويكون عربيًّا ومن إنتاجنا وليس مستوردًا إذا كانت حتى قناني الماء مستوردة من فرنسا وتركيا»١).

فما دمنا لا نملك القوة العسكرية، ولا نملك القوة العلمية، ولا نملك الصناعة، والإنتاج، فإن لغتنا ستكون أقل اللغات انتشارًا ! لأنّ « قوة اللغة من قوة أهلها «، ليس ذلك فحسب، بل ربما ستتقلص لغتنا وتموت وتنقرض كما جاء في تقرير اليونيسكو الذي يرى أن اللغة العربية من إحدى اللغات المرشحة للاندثار خلال هذا القرن (الحادي والعشرين).٢ فاللغة التي تنتشر، وتتسع رقعة مستعمليها هي لغة القوي ولغة المنتج. وأما لغة الضعيف والمستهلك ـ كاللغة العربية ـ فإنها ستكون من ذوات الحظ السعيد إذا لم تنقرض وتنعدم، وتحل محلها اللهجات المحلية العامية كما حصل للغة اللاتينية التي حلّت محلها اللهجات الأوروبية كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، وغيرها.

٢ ـ عدم رغبة الحكومات والأنظمة والمؤسسات العربية في انتشار اللغة العربية :

إن هؤلاء جميعًا ليست لديهم

الرغبة الأكيدة، والنية الصادقة في نشر اللغة العربية، وجعلها لغةً عالمية، بل إنهم هم المسؤولون على تأخرها، وخنقها، وتحجيرها، وموتها المحقق. وهنا قد يقول القائل إن العربية لن تندثر لأنها لغة القرآن الكريم، الذي تعهد الله بحفظه. وقد يُردّ على هؤلاء بأن القرآن الكريم ما يزال محفوظًا في الدول الإسلامية كتركيا، وإيران، وأفغانستان، وجنوب شرق آسيا كماليزيا، وأندونيسيا، وغيرها من الدول الأخرى كدول البلقان، وأسبانيا، ولكنّ اللغة العربية لا وجود لها في هذه الدول إلا داخل المساجد وبين دفتي المصحف الشريف. فالقرآن محفوظ بالإرادة الإلهية ولن يندثر أو يزول إلى أن يرث الله الأرضَ وما عليها. وأما اللغة العربية، فهناك من العلماء والمجمعيين الأجلاء مَن أشار إلى أن الله لم يتعهد بحفظها بل تعهد بحفظ القرآن الكريم، ومن هؤلاء العلماء الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية.٣ والدكتور أحمد بن محمد الضبيب مدير سابق لجامعة الرياض وعضو المجامع اللغوية في كلّ من بغداد، ودمشق، والرباط، والقاهرة.

إذًا اللغة العربية - كغيرها من اللغات - قابلة للانقراض والتلاشي ، فالله لم يتعهد بحفظها، وحتى لو تعهّد الله بحفظها فإن ذلك لا يعفينا - نحن العرب - من أداء واجبنا نحوها؛ ألا ترى أنّ السلف الصالح دافعوا عن الدين الإسلامي، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأرواحهم حتى نشروه في أصقاع الأرض مع علمهم بأن الله قال في كتابه العزيز: ? يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون؟٤ . ثمّ انظر- أدناه (ص. ٨ من هذه الدراسة) - إلى ما فعله الخليفة عبد الملك بن مروان للحفاظ على اللغة العربية، ونشرها. إذًا على عاتق أهل اللغة العربية فقط تقع مسؤولية الحفاظ عليها، وصونها، وترقيتها، والعمل على نشرها وانتشارها.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن علماء اللغات يقولون إن اللغة العبرية ماتت لمدة سبعة عشر قرنا تقريبًا أي منذ عام ٢٠٠م. وحتى عام ١٨٨١م. ثمّ بُعِثت، ونمت، وازدهرت، من جديد بفضل أبنائها فأصبحت لغة العلوم التطبيقية، ولغة العلوم الإنسانية، واللسانية، ولغة الاقتصاد، والسياسة، والتجارة، والأدب، والفكر، والصناعة، والطب، إلى جانب كونها لغةَ العبادات والطقوس الدينية. فكيف كان ذلك ؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في المقولة : « إذا وُجِدت الإرادة والنيات الصادقة، غاب الصعب وتلاشَى المستحيل « فعندما بدأت الهجرات اليهودية إلى فلسطين، تبيّن للغيورين، والمسؤولين على نشوء الدولة العبرية(إسرائيل) أن هذه الهجرات جاءت من خلفيات لغوية مختلفة؛ فمنهم من جاء من روسيا والدول الأوروبية الشرقية، ومنهم من جاء من بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية الغربية، ومنهم من جاء من الوطن العربي، فلكل منهم لغته، ولا يمكن إيجاد رابط يوحّد بينهم إلا اللغة العبرية، ولذلك رُفِعَ شعارٌ قومي يقول: « اليهودي يتكلم عبري « وقد وُضِعَ هذا الشعار أو المقولة في أماكن بارزة، وعُلِّقَ على الجدران في كل المستوطنات، والأحياء، والمدن، والقرى، والشوارع، والأزقة التي يسكنها اليهود. ويفهم من هذا الشعار أنّ الذي لا يتكلم العبرية ليس يهوديًّا. فهكذا، شعر كلُّ يهودي أنه لا يكون يهوديًّا حقًا إلا إذا تكلّم العبرية. وهذا ما جعل كُلا منهم يتكلم العبرية.٥

وبمجرد أن أُنشِئت الإذاعات المسموعة والمرئية في فلسطين المحتلة، فُرضت عليها اللغة الواحدة المشتركة وهي اللغة العبرية. ومنذ ١٩٠١ إلى الآن ليس هناك منهج بالتعليم الإسرائيلي - العام أو العالي - يُدرّس أو يُدرس بغير اللغة العبرية. وهكذا توحدت اللغة وترابط الشعب، فقويت الدولة وأصبحنا مبهورين بها، ومن حقها - بل من واجبنا والحق علينا - أن ننبهر بها لا حبًّا فيها ولكن من مبدأ الصدق والموضوعية والتجرد من التعاطف، والتحامل. وقد أشار المفكر العربي الدكتور عزمي بشارة إلى أنه ليس هناك تعليم في إسرائيل إلا بالعبرية٦.

والسؤال الآن: ماذا فعلت الحكومات، والأنظمة العربية من أجل الحفاظ على اللغة العربية مقارنة بما فعله اليهود الذين بعثوا الحياة في لغتهم العبرية بعد أن ماتت، وكادتْ تندثر وتنقرض؟ ومتى يشعر كلّ عربي بمثل هذا الشعور ليتشبَّث بلغته، ويفتخر بها، ويدافع عنها؟

أن الوطن العربي مُشتّتٌ، ومجزّأ ولكل دولة لهجتها أو لهجاتها المحلية، وأما العربية الفصحى فإنها لم تعد

تجمع العرب إلا على صفحات الكتب وفي بعض نشرات الأخبار المسموعة أو المرئية. (وهذا يذكرني بما قاله أحد رؤساء الجامعات في الوطن العربي، وهو دكتور متخصص في اللغة الإنجليزية، قال : « كنت في اجتماع اتحاد الجامعات العربية وكان كل الحاضرين يتكلمون باللغة الإنجليزية فتساءلت: لماذا لا نتكلم العربية ونحن عرب، ورؤساء جامعات عربية؟ فوافق الجميع، وأخذنا نتكلم بالعربية ولكن أيّ عربية؟ كل واحد منا أخذ يتكلم بلهجته المحلية إلى درجة أننا لم نعد نفهم بعضنا بعضًا . فقمتُ مرةً أخرى وقلتُ يبدو أننا ليست لدينا لغةٌ مشتركةٌ إلا الإنجليزية . فرجعنا نتفاهم باللغة الإنجليزية»).

ولنأخذ مثلا آخر من كوريا الجنوبية التي جعلت من لغتها وسيلة للتقدم والرقي في شتى المجالات. فقد أصبحت أسماء المحلات التجارية، والمؤسسات، والشركات في كوريا تُكتبُ بالخط الكوري العريض وتحته عبارةٌ مكتوبة باللغة الإنجليزية وبخط رفيع جدًّا تقول « إذا أردت أن تنطق هذا الاسم باللغة الإنجليزية فعليك أن ترحل إلى بريطانيا «. وماذا عن الفرنسيين ؟ إنهم أكثر اعتزازًا بلغتهم من غيرهم إلى درجة أن القانون الفرنسي ينص على عقوبة ضد مَن يُخطئ في الإعلام المسموع أو المرئي أو المكتوب، أو في التدريس وذلك بحجة أن أي خطأ لغوي يُفسد لغة الأطفال.

وانظر إلى المشروع الفرنسي العالمي (الفرانكوفونية) لتعميم اللغة الفرنسية وتجذيرها خارج الحدود الفرنسية. إنّ اللغة الفرنسية ليست محدودة بحدود الدولة الفرنسية بل يتكلمها كثيرٌ من الشعوب في كثير من دول العالم في أوروبا، وأفريقيا، وآسيا، وأميركا الجنوبية. ومع ذلك، فإن الحكومات الفرنسية المتعاقبة تتسابق على نشر الفرنسية في أكبر عدد ممكن من دول العالم ، وتتسابق على ازدهار اللغة الفرنسية، والحفاظ عليها داخل فرنسا، وخارجها.

فأين نحن من هؤلاء؟ أين الفضائيات العربية وحرصها على أبنائنا من فساد لغتهم، وأين حرصُها على لغتنا من الانقراض؟ إذا استثنينا قناة السبيستون، والجزيرة أطفال، فإننا لا نجد قناة تبث برامج خاصة بالأطفال بلغة عربية. وأين الحكومات العربية ومعاقبة الذين يسيئون إلى اللغة العربية بقصد ومن دون قصد؟ وأين السياسات اللغوية التي تفرضها النظم العربية للحفاظ على اللغة العربية ناهيك عن محاولة نشرها أو انتشارها عالميًّا؟ يقول المتخصصون في الدراسات اللغوية إنّ الأنظمة العربية لا تضع من السياسات اللغوية إلا مادة صمّاء في دساتيرها تنص على أن اللغة الوطنية هي اللغة العربية. ولكن أحدًا من هذه الأنظمة لا يلتزم بما تنص عليه هذه المادة. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل المرحوم عبد الوهاب المسيري يرفع قضيةً ضد النظام المصري على أنه يخالف دستور الدولة (مصر) الذي ينص على أن « اللغة الرسمية للدولة المصرية هي اللغة العربية «، ومع ذلك ليست هناك عقوبة على من يخالف هذه المادة، بل إنّ الاحترام، والتبجيل، والتكريم، لأولئك الذين يجيدون غير العربية.٧ وحقيقة الأمر أن هذه المخالفة الدستورية ليست عند نظام عربي واحد بعينه، بل العكس هو الصحيح حيث ليس هناك نظامٌ عربيٌّ لم يرتكب هذه المخالفة، إلا أنّ الحكومات العربية قد تختلف فيما بينها حول اللغة الأجنبية التي تفضّلها كلّ دولة، ولكنها لا تختلف عمليًّا في معاملة اللغة العربية على أنها أدنى درجة من اللغات الأجنبية.

من هذا المنطلق يمكن أن نفهم أن الأنظمة، والحكومات العربية لا تهمها اللغة العربية، ولا يهمها انتشارها، ولا يخيفها انقراضها، واندثارها، وإلا لكانوا قادرين على نشر الفصحى بدلا من اللهجات القزمية المحلية. وهذا الأمر من مسؤوليات النُظم، والحكومات، والمنظمات العربية القائمة الآن كالجامعة العربية، والمجامع اللغوية، ومنظمة الأليكسو، وليس من مهام العلماء والأكاديميين وحدهم. فإذا أراد هؤلاء الحكام، وأولئك الذين يملكون اتخاذ القرار، ويملكون وسائل تنفيذه، فإنهم يستطيعون - ومن دون أدنى شك - أن يصلوا بلغتنا إلى ما وصلت إليه اليابان، وكوريا، وإسرائيل، والدول الأوروبية، وأميركا الشمالية من التقدم والعلم من خلال الحفاظ على اللغة القومية لكل منهم. فخذ مثلا على قوة وفاعلية القرار السياسي في نشر اللغة وتقويتها: يحدثنا المؤرخون أنّ اللغة العربية انتشرت بانتشار

الدين الإسلامي انطلاقًا من المبدأ الذي ورد ذكره أعلاه٨. ومع ذلك فإن المسؤولين، وولاة الأمر لم يتركوا الحبل على الغارب؛ بل إن الخليفة عبد الملك بن مروان مثلا أصدر عام ٧٠٠م. قرارًا أو مرسومًا يقضي بأن اللغة الوحيدة المعترف بها في الدوائر الرسمية، والحكومية هي اللغة العربية، فكان ذلك دافعًا قويًّا لتعلم اللغة العربية للحصول على الوظائف، والأعمال بالمؤسسات الخاضعة للدولة الإسلامية التي كانت تضارع الإمبراطرية الرومانية آنذاك. فأين قرارات الحكام، والساسة العرب المعاصرين من أجل انتشار اللغة العربية خارج الوطن العربي، أو على الأقل من أجل الحفاظ عليها من الانقراض، والتلاشي، والاندثار؟ فإذا كانت الدول الناطقة باللغة الصينية، والإنجليزية، والفرنسية تسعى جاهدة بكل السبل والوسائل لنشر هذه اللغات خارج حدودها ، فإننا كُنّا نحلم بذلك ولكننا لا نبذل حياله أيّ جهد، حتى وصلنا إلى أن أصبحنا نتمنى ألّا تموت اللغة العربية داخل الوطن العربي بلْهَ أن نتمنى انتشارها واتساع رقعة مستعمليها والناطقين بها خارج حدودنا.

وهذا مثلٌ آخر يوضّح فاعلية رسم السياسات اللغوية، وتدخّل الحكومات والمختصين في الحفاظ على اللغات القومية: إن كوريا الجنوبية بها قناةٌ فضائية حكومية واحدة، وبها (١٠٩) مئة وتسع قنوات خاصة. وهذه القنوات (١١٠) المئة وعشرة كلّها تبث برامجها باللغة الكورية الفصحى الموحدة؛ وذلك لأنها تحت رقابة الدولة التي يهمها الحفاظ على لغتها القومية من خلال رسم سياسات لغوية لا يجوز اختراقها أو كسرها. فأين إذاعاتنا وفضائياتنا من إذاعات وفضائيات كوريا الجنوبية ؟ وأين أنظمتنا العربية وسياساتها اللغوية المقدّسة التي يجب أن تُحترم وتنفّذ من دون أدنى مخالفات أو اختراقات؟ يجيب عن هذا السؤال العالم اللغوي علي القاسمي (العراقي المولد ـ المغربي الإقامة بقوله: « إنّ سياسات الدول العربية تحقق نجاحًا باهرًا في القضاء على اللغة العربية «٩

٣ ـ صعوبة اللغة العربية وعدم معاصرتها لمتطلبات العصر:

إذا استطعنا أن نصل بلغتنا العربية إلى أن نصفها بلغة القويّ المنتج، وإذا ضَمِنَّا من حكامنا ومؤسساتنا التعليمية، والثقافية، والإعلامية، أن يتبنوا اللغة العربية بإرادة قوية وحازمة لنشرها، وحفظها وصونها من الانقراض والانحدار أو الاندحار، فلم يبقَ أمامَنا إلا معضلةٌ واحدةٌ وهي أنْ نعترف بصعوبة اللغة العربية، وأن نعترف بأنها في حاجة ماسة إلى تنقيتها من العوائق والصعوبات التي تجعلها من ضمن اللغات المهدّدة بالانقراض لأنها كما يقول الدكتور القاسمي « لم تعد لغةً عالمية «١٠ .

وبهذا الصدد أشار العالم اللغوي الدكتور رشدي طعيمة إلى أنّ الدكتور البريطاني ديفد كريستال المتخصص في علم اللغات أحصى ـ في كتابه « موت اللغة « ـ تسعة أسباب لانقراض اللغة وهذه الأسباب التسعة ـ كما يقول الدكتور طعيمة ـ تنطبق جميعها على اللغة العربية تمام الانطباق.١١

فإذا أردنا للغتنا العربية (الفصحى) أن تزدهر وتنتشر، فعلينا أن نشجع أبناءنا على حب العربية قبل أنْ نتوقّع انتشارها عالميًّا وهي تحتضر محليًّا وداخليًّا، وعلينا أن نحبّب العربيةَ إلى أبنائها قبل أن نحاول تحبيبَها إلى غيرهم. وهذا التحبيب يستوجب منا أنْ نُيسّرها ونجعلها خفيفة على لسان المتكلم، وعلى أُذن السامع بدلا من كونها بعبعًا، أو فزاعةً، أو شبحًا مخيفًا يستعيذ منه أبناؤنا في كل مراحلهم العمرية والتعليمية. فكيف نتوقع أن يتقبلَ غيرُ العرب لغةً لا يحبها أهلها وأبناؤها ، ولغةً يعجز عن التحدث بها حتى أساطينها وجهابذتها؟ فكثيرون الذين يتفقون مع الدكتور أحمد عبد الله درويش وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، والدكتور شريف محمد الشوباشي ـ وكيل وزارة الثقافة والإعلام المصرية سابقًا ـ في أن اللغة العربية تحتاج إلى وقفة جادة من علمائها ومجامعها اللغوية لتنقيتها من بعض العوائق والصعوبات التي تجعل اللغة صعبةً أمام أبنائها وأمام الراغبين في تعلمها من غير العرب، كما أنها تحتاج إلى أنْ تتحرّر من الهيمنة المضروبة عليها ممن يمكن أن نسميَّهم بالسّدنة أو بالحرس القديم على اللغة العربية. والدكتور درويش، والدكتور الشوباشي هنا لم يكونا بِدَعًا عن غيرهما من العلماء، بل إنهما يجدّدان دعوة طه حسين،

ورفاعة رافع الطهطاوي، وأحمد حسن الزيات، وغيرهم من العلماء والمفكرين الذين ينادون بتيسير اللغة العربية وتحريرها من الهيمنة المضروبة عليها من أبنائها الذين أساؤوا إليها من حيث أرادوا أن يفيدوها، فكبّلوها وجمّدوها وهم أحياء، وكبلونا وقيّدونا حتى وهم أموات.١٢ قد لا يوافقني كثيرٌ من المتلقين (القراء والمستمعين)على هذا الطرح !! ولكن ماذا لو قلتُ لكم إنّ أبناء الوطن العربي يتعاملون مع اللغة العربية منذ أكثر من خمسة عشر قرنا ـ على أقل التقديرات ـ ولكنهم حتى هذه اللحظة لم يتفقوا على طريقة معينة لتحديد مكان كتابة الهمزة (مثل المئة والهيئة) ؟؟ وماذا لو قلتُ لكم إننا إلى هذه اللحظة لم نستطع أن نتخلّص مما نسميه الحروف التي تُنطق ولا تُكتب مثل الألف المحذوفة في العديد من الكلمات منها(ذلك، ولكن، وهذا) ، والحروف التي تُكتب ولا تُنطق مثل ما يُسمَّى بالألف الفارقة بعد واو الجماعة في مثل قولنا (ذهبوا ، ولم يذهبوا) والنطق بطريقتين مختلفتين لكلمة بشكل واحد بمعنيين متغايرين: (لم يدعوا / لم يدعوا) ، وماذا لو قلت لكم إنّنا نُخالف إملائيًّا قاعدة الحروف الشمسية والقمرية (مثل: التوت ، التي/ الذئب، الذي). إننا ـ نحن العربَ ـ أخذنا هذه الأشياء كمسلمات ولم نناقشها أو ننظر إليها بعين الناقد المتفحص المتجرد من التعاطف والتحامل. فالمتعلم وخاصة غير العربي لا يستطيع أن يستوعب هذه المغالطات أو التناقضات بين التنظير والتطبيق في الإملاء العربي.

ومن الصعوبات في اللغة العربية ـ أيضًا ـ ضمير المثنى بنوعيه ، وضمير جماعة الإناث. فأنا لم أحضر أو أشاهد لقاءً مع أيّ شخص حتى وإن كان قطبا من أقطاب اللغة العربية وأساطينها استطاع أن يكمل لقاءه مستعملا ضمير المثنى أو ضمير جماعة الإناث من دون أن يخطئ أو يلحن. وإن استطاع أن يفعل، فإنه يجد في ذلك صعوبةً تعوقه وتعوق انطلاقه واسترساله في الحديث بما يُشعِر المتلقي أو المحاوِر بأن المحاوَر أو المتحدِّث يفكّر مليئًا قبل أن ينطق ولذلك فإنه يتعثّر ويتلكّأ في النطق، وأعتقد أن مشكلة المثنى وضمير جماعة الإناث من أكبر المشاكل النحوية التي تواجه المترجمين الفوريين. إنّ الناطق بالعربية لا يستطيع أن ينطق قبل أن يفهم المعنى ليرفع الفاعل وينصب المفعول... إلخ (وهذا ما جعل الغرب يقولون : « نحن ـ الغربَ ـ نقرأ لنفهم، بينما العرب يفهمون ليقرؤوا ».

وربما يدخل تحت صعوبة اللغة العربية، أو تحت عدم اكتراث النظم والحكومات العربية بالحفاظ على لغتهم القومية أن اللغة العربية يمكن شطبها من اللغات الست المعتمدة لدى منظمة الأمم المتحدة. يقول الدكتور علي القاسمي إن الأمم المتحدة في نيو يورك تتجه إلى إلغاء العربية من بين اللغات العالمية الرسمية في المنظمة وذلك لثلاثة أسباب :

١ ـ عدم استعمال ممثلي الدول العربية اللغةَ العربيةَ في الأمم المتحدة؛ فهم يستعملون الإنجليزية أو الفرنسية بدلا من اللغة العربية.

٢ ـ عدم وجود مترجمين أكفاء يجيدون اللغة العربية.

٣ ـ عدم وفاء معظم الدول العربية بالتزاماتها المتعلقة بدفع نفقات استعمال العربية في هذه المنظمة الأممية.

فهل يرى ممثلو الدول العربية أن اللغة العربية أقلُّ من أن يتحدثوا بها ؟ إن كان ذلك كذلك، فهو بلا شك تقصير منهم ومن دولهم التي لا تُلزمهم باستعمال العربية في مثل هذه المحافل العالمية لانتشار اللغة العربية والتعرف عليها في غير الوطن العربي. أو أن اللغة العربية صعبةٌ على هؤلاء المندوبين فلم يستطيعوا أن يتكلموها أو يتحدثوا بها ؟ إن كان الأمر كذلك فإنّ اللغة العربية تحتاج إلى تيسير وتسهيل حتى يستطيعَ أبناؤها استعمالَها، ثم نحاول بعد ذلك نشرَها وتسويقها في الخارج.

أما عدم وجود المترجمين الأكفاء الذين يجيدون اللغة العربية، فإنه مسؤولية الحكومات والأنظمة العربية، والمؤسسات والمنظمات ذات العلاقة مثل الأليكسو ، والمعهد العالي العربي للترجمة بكلٍّ من الجزائر وسوريا التابعَين لجامعة الدول العربية.

وأما عدم التزام الدول العربية بدفع نفقات استعمال العربية في منظمة الأمم المتحدة فلا يحتاج إلى تعليق أكثرَ من قولنا « بأيدينا لا بيد عمرو » .

أقول ربما يكون من الأنفع والأجدى والأجدر بنا أنْ نقوم بتيسير اللغة العربية، وذلك بتنقيتها من الشوائب، والعوائق، والعراقيل سواءٌ من حيث

الإملاء أو من حيث النحو، وذلك قبل التفكير في انتشارها، أو نشرها، وتصديرها إلى غير العرب الذين لن يرحّبوا بما هو صعبٌ على أهله أو يكاد يكون مستحيلا عليهم. وقد يجادل أحدٌ بأنّ اللغة العربية من حيث الرسم الإملائي يجب أن تتفق مع رسم القرآن الكريم. وهنا يكون الرد بأن الرسم القرآني عملٌ بشريٌّ بحت لا صلة له بنص القرآن المنزّل على الرسول (صلعم) قولا لا رسمًا، يُضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم قد مرّ بمرحلتين عظميين حتى وصل إلينا على الصورة التي هو عليها الآن؛ فقد كُتب مُصحف عثمان من دون إعجام (نقاط)، ومن دون حركات الإعراب (الضبط بالشكل)، ثم بعد ذلك اختُرِعت النقاط، والحركات وأُضيفت إلى المصحف الشريف. فهذا دليل قاطع على أن الرسم القرآني ليس توقيفيًّا ولا مُقدَّسا بل إنه توفيقيٌّ خاضع للتغيير والتطوير والتعديل والتسهيل والتحسين كأيّ عملٍ بشريٍّ آخر.

وخلاصة القول: إن اللغة العربية ما لم تنحسر وتتراجع في ظل المعطيات الموجودة الآن، فإنها لن تتقدّم قيدَ أنملة، ومن ثمّ فإنّ الحلم بانتشارها سيبقى حلمًا، ولن يتحوّل إلى واقعٍ إلا إذا توفّرت معطيات جديدة ومغايرة لما هو موجود الآن. وهذه المعطيات الجديدة هي :

١ ـ اتحاد الوطن العربي، وتحرير فلسطين، وإنشاء سوق عربية مشتركة على أنقاض مشروع السوق الشرق ـ أوسطية. فما لم يتوفر لدينا من القوة ما يلزم للقيام بهذه الأمور، فإننا سنظل ضعفاءَ ومستهلكين، ولغة الضعيف، والمستهلك مهدّدة بالانقراض والزوال، ولا أمل لها في البقاء والحياة، فضلا عن التوسع والانتشار.

٢ ـ تبسيط اللغة العربية وتيسيرها أمام أبنائها وغير أبنائها. وبذلك تصبح العربية مفهومةً، ومقدورًا عليها، ومرغوبًا فيها فيحبها أبناؤها ويحبها الآخرون ويُقدِمون عليها. وأما أن تكون العربية لغةً جافةً مخيفةً حتى لأبنائها فلن يُقبِلَ عليها أحدٌ من غير أبنائها، ولن يتعلمها أحدٌ حتى من أبنائها ما لم يكونوا ملزمين بتعلمها، ومجبرين عليها.

٣ ـ أن تتبنى الحكومات العربية مسؤولية الحفاظ على اللغة القومية (العربية الفصحى). وذلك من خلال رسم سياسات ملزمة تلتزم بها كل القطاعات، والجهات، والمؤسسات التعليمية، والإعلامية الخاصة والعامة، وأن تلتزم الدول العربية بالإيفاء بالتزاماتها التي من شأنها خدمة اللغة العربية كما هو الحال في منظمة الأمم المتحدة، ومنظمة الأليكسو.

٤ ـ أن تلتزم الدول العربية بتشجيع الطلبة على تعلم اللغة العربية والتخصص فيها، وذلك بمنحهم درجات وظيفية أكبر من نظرائهم في المجالات الأخرى. أو بعدم اعتماد أيةِ لغةٍ داخل الوطن العربي إلا اللغة العربية كما فعل عبد الملك بن مروان.١٣ أو بقرارات مشابهة تخدم اللغة العربية فتصونها وتحافظ عليها وتساعد على انتشارها واتساع رقعة مستخدميها.

٥ ـ إذا أرادت الدول العربية نشر لغتها، وتعليمها لأبناء العالم الآخر حتى تسود وتنتشر، وتصبح لغة عالمية تُنافس غيرها من اللغات على الوصول إلى المستوى الرفيع الذي تنشده وينشده أهلها، فإنّ هذه الدول عليها أن تقوم بإرسال بعثات(إرساليات تعليمية أسوة بالإرساليات التبشيرية الدينية) من المدرسين ذوي الكفاءات العالية والخبرات المتميزة لتدريس اللغة العربية بالدول غير الناطقة بها، حتى ولو كان ذلك على نفقة هذه الدول العربية إذا أرادت أن تجعل لغتها لغة عالمية معروفة ومرموقة. وربما يوكل إلى جامعة الدول العربية أمرُ توزيع أنصبة الدول الموفِدة، وذلك لتنظيمه وفق الكثافات السكانية، أو وفق الدخل القومي ...إلخ. وربما تتحمل الدول العربية ـ بالتنسيق مع الجامعة العربية ـ نفقة إنشاء مدارس، أو معاهد، أو كليات، أو جامعات لتعليم اللغة العربية للشعوب الناطقة بغير العربية، وذلك كالذي تقوم به أميركا في بعض الدول العربية كلبنان ومصر، وكالذي تقوم به فرنسا في بعض الدول العربية مثل لبنان.

٦ ـ على الدول العربية أن تؤمّن وظائف محلية لأولئك الذين يتعلمون اللغة العربية من غير أبنائها فبهذا التحفيز والإغراء يمكن أن يُقبلَ غيرُ العرب على تعلم العربية فتنتشر بينهم وهم راغبون فيها حيث تعذر علينا أن نجعلهم مرغمين عليها بسبب قوّتهم وضعفنا، وبسبب إنتاجهم واستهلاكنا، وبسبب صعوبة لغتنا، وتقاعس حكوماتنا ومؤسساتنا ومنظماتنا. وما لم تتحقق هذه الأمور، فعلى اللغة العربية السلام، وإذا انقرضت اللغة العربية، فقل على الأمة العربية السلام وذلك كما قال ابن خلدون : « لا أمة بلا لغة »

ومما سبق ذكره، يمكن أن نصل إلى أهم سبل علاج هذه المشاكل والعقبات التي تعوق اللغة العربية وتمنعها من الانتشار، ومن منافسة اللغات العالمية الأخرى:

أوّلا ـ تحسين السياسات التعليمية العليا من طرف الدول العربية :

المقصود بهذه السياسات هو الجهود التي يجب أن تبذلها الدول والحكومات من أجل خدمة اللغة العربية، وأقل هذه الجهود والمخططات هو تشجيع التلاميذ والطلاب على التخصص في مجال اللغة العربية وذلك بوضع حوافز ومزايا أمام خريِّجي اللغة العربية لا تُمنح لغيرهم من التخصصات الأخرى وذلك مثل: مِنَح دراسية، مكافآت، إسكانٍ طلابي مجاني، مواصلات طلابية مجانية، وإعطاء الخريجينَ في هذا المجال درجات وظيفية أكبر من تلك التي تُمنح لغيرهم من خريجي المجالات الأخرى، وترشيحهم للعمل على وظيفة ملحقين ثقافيين لطلاب بلدانهم بالخارج وخاصة بالدول العربية، وإعطائهم الأولوية في التعيين قبل غيرهم، وفتح باب الدراسات العليا بالداخل، والخارج أمام المتفوقين منهم، وإعفائهم من رسوم الدراسة، ومن ثمن الكتب، ومن بعض الواجبات الوطنية كالخدمة العسكرية، والعمل في المناطق النائية... إلخ.

ولئلا تكون هذه الحوافز سببا يُغري الدارسين بالدخول في مجال اللغة العربية، دون أن يكونوا قادرين عليها، أو راغبين فيها، فإنّه من المنطقي جدًا أن نحُدَّ من ذلك بواسطة امتحانات قبول لا يُقبَلُ الطالبُ في تخصص اللغة العربية إلا بعد اجتيازها. وبذلك يجب أن يتوفر في الطالب الذي يريد أن يتخصص لغة عربية شرطان لا غنًى عنهما أو عن أحدهما وهما المقدرة، والرغبة ؛ فمن لا يتوفر فيه هذان الشرطان معًا، لا يُقبل بهذا المجال .

ثانيًا ـ السياسات التعليمية من قطاعات التعليم :

والمقصود بذلك هو البرامج التي يقوم بها قطاع التعليم من أجل اللغة العربية. وليكون القطاع ناجحًا في خدمة العربية وترقيتها وصونها والحفاظ عليها، فإنه ينبغي أن يقوم بتدريسها ابتداءً من المرحلة الابتدائية أكفأُ المعلمين والمدرسين وأكثرهم خبرةً. ويجب أن يُلغَى نظامُ الترحيل في كلِّ المراحل التعليمية. ويجب توفير بدائل لأولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في الدراسة لعدم مقدرتهم على التحصيل والاستيعاب. كما يجب على السياسات التعليمية أن تقتدي بمواصفات الفصل التعليمي النموذجي التي تصدر عن منظمة الأليكسو من حيث عدد التلاميذ في الفصل، ومن حيث مواصفات القاعات الدراسية، ومن حيث التوافق بين العمر الزمني والمستوى التعليمي، ومن حيث عدد الساعات الدراسية في اليوم الواحد. كما يجب أن تكون حصص اللغة العربية في الساعات المبكرة من اليوم الدراسي، ولا يجوز تأخيرها إلى أن يكون التلميذ قد تشبّع من العلوم الأخرى فلم تبقَ لديه الرغبة في محاولة التحصيل، ولم تبقَ لديه القدرة على الفهم والإدراك والاستيعاب.

هذا بالنسبة إلى التعليم العام أو الأساسي، أما في التعليم العالي، فإنّ اللغة العربية يجب أن تكون أكثر حظا وأوفر اهتمامًا واعتناءً بحيث لا يُقبل بتخصص اللغة العربية بالجامعات والمعاهد العليا وكليات المعلمين بصفة أخصّ إلا مَن تتوفر فيه الشروطُ التي تؤهله لأنْ يكون معلمًا أو مدرسًا ناجحًا في المستقبل. وهذا التأهيل كما أشرنا سابقا يكمن في شيئين اثنين هما المقدرة والرغبة لمن أراد أن يتخصص في مجال اللغة العربية بصفة عامة. أما لمن أراد أن يكون مدرسا للغة العربية،

فيُضاف إلى ذَيْنك الشرطين شرطٌ ثالثٌ وهو اللياقة والمقدرة البدنية، ولكي تُضبط هذه الشروط والمعايير، فإنّ قطاع التعليم يجب أن يخضع وينصاع لما تقرره الدولة من الضوابط، والمعايير، والمزايا، والمنح، والمكافآت، والعقوبات، والفصل، والحرمان، وكل ما يتعلق بحقوق التلاميذ، والطلاب، وواجباتهم، وجزاءاتهم، وعقوباتهم. فإذا لم يلتزم قطاع التعليم بما تقره السياسة العليا للدولة من اللوائح التي تنظّم العملية التعليمية، فإن التعليم لن تقوم له قائمة ولن يكون بالمستوى المطلوب، وإذا كان هذا هو شأن التعليم بصفة عامة، فإن اللغة العربية جزءٌ منه ومصيرها مصيره.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعليم اللغات الأجنبية داخل الوطن العربي أمرٌ إيجابيٌّ ويجب تشجيعه، ولكن ذلك لا يعني أن تصبح اللغات الأجنبية بديلة عن اللغة العربية، بل يجب أن تكون الأولوية للغة العربية لأنها لغتنا ولأنها المكوّن الأساسي لقوميتنا، وهويتنا، ووجودنا، وكياننا. فاستجلاب المؤسسات التعليمية الأجنبية إلى الوطن العربي لنشر اللغات الأجنبية يجب أن يكون تحت رقابة صارمة من التعليم المحلي ومن الحكومات العربية لئلا تقضي هذه اللغات على اللغة العربية وتجعلها هامشيّة دونيّة لا لزوم لها في نظر أبنائها، فيحتقرونها ولا يأبهون بها .

ولعله من المفيد أن تبتكر السياسات التعليمية طُرُقا، أو وسائلَ جديدةً لتقييم تحصيل التلاميذ والطلاب المتخصصين في مجال اللغة العربية بدلا من تلك الامتحانات التقليدية، والسبل، والوسائل التي لا تعبّر حقيقةً عن حصيلة استيعاب الطالب بقدر ما تعبر عما كتبه - بطريقة أو بأخرى - في ورقة الإجابة. إنّ التلميذ أو الطالب ربما يخضع لاختبارات متعددة ومتكررة خلال السنة الدراسية، أو الفصل الدراسي توزع عليها درجات المادة بطرق متنوعة ومختلفة، بحيث يصبح الامتحان النهائي امتحانًا، أو اختبارا لا يُشكِّل خطورةً، ولا يستحوذ على درجة كبيرة من درجة النجاح. ومن ثم تقلُّ عملية السرقة والغش والنجاح الجزافي والعشوائي. وعندما تتغيّر طرق التقييم، ووسائل الامتحانات، تصبح النتائج أقرب للحقيقة، ومن هنا يمكن الركون إليها في تحديد مصير الطالب من حيث قبوله وعدم قبوله في هذا التخصص أو ذاك، ومن هذه التخصصات - طبعًا - تخصص اللغة العربية. ويجب على قطاع التعليم إعطاء التقارير الفنية السرية - التي يعدّها الموجهون والمفتشون الفنيون حول أداء المدرسين - أهميَّةً بالغةً في ترقية مدرسي اللغة العربية وتشجيعهم، وتحفيزهم، أو معاقبتهم التي قد تصل إلى فصلهم من التدريس إذا أوضحت التقارير السرية عدم مقدرتهم أو سوء أدائهم أو عدم التزامهم.١٤

ثالثًا - دور مجامع اللغة العربية في خدمة هذه اللغة وتنقيتها وترقيتها :

لمجامع اللغة العربية دوران اثنان يجب القيام بهما من أجل النهوض باللغة العربية وهما :

١ - دور يتعلق باللغة العربية ذاتيا،

ويُعنَى هذا الدور بتخليص اللغة العربية مما يعوقها من العراقيل مثل الحروف التي تُكتبُ ولا تُنطقُ، ومثل الحروف التي تُنطقُ ولا تُكتبُ. إنّ هذه الحروف تُشكِّل صعوبةً وعقدةً أمام أبنائنا في المراحل الأولية من التعليم، وأمام الكبار من غير العرب ممن يريدون تعلم اللغة العربية فيجدون أمامهم هذه الحروف التي لم تَعُدْ إليها حاجةٌ في العصر الحديث، ذلك أنَّ علماء اللغة الأوائل كانوا مُضطرين لمثل هذه الحروف لتمييز هذا من ذاك قبل اختراع الإعجام (النقط) وحركات الإعراب(الضبط بالشكل). أما الآن وقد أصبح التمييز بين المتشابهات أمرًا يسيرًا بفضل النقاط والحركات، فإنّ بقاء هذه الأحرف أصبح حملا ثقيلا يعرقل اللغة ويعرقل متعاطيها، ويُكبِّل الاثنين معًا. كما يمكن أن تقوم هذه المجامع ببعض المعالجات والحلول للمشاكل النحوية التي تعوق متعلمي اللغة العربية من أبنائها، ومن غير أبنائها، وذلك مثل ضمير المثنى بنوعيه، وضمير جماعة الإناث... إلخ. فإذا أردنا للغة العربية أن تنطلق من مثل هذه القيود، وأن تصبح سهلةً ومُيسّرة على مَنْ يريد أن يتعلمها، فإنّ المجامع اللغوية - مجتمعة - يمكنها أن تعيد النظر في مثل هذه العقبات التي لا لزوم لها.

٢ ـ دور يتعلق باللغة العربية وسدنتها والتحجير عليها :

تُعدُّ سدانة اللغة العربية، والوصاية عليها من أهم المشاكل، والعراقيل التي تعوق اللغة العربية عن مواكبة غيرها من اللغات، ومواكبة العلوم، والمعارف، وما تنتجه الحضارات من التقنيات، والمستحدثات، وما يرافقها من الأسماء والمصطلحات. إنَّ علماءَنا الأجلاء وضعوا لنا معاجمَ وموسوعات لغوية قيَّدوا بها كلَّ شاردة وواردة منَ المفردات المتاحة في زمانهم ولهم على ذلك الشكر والاحترام والتقدير. ولكن جاء بعدهم علماء أرغمونا على عدم التوسع في مفردات لغتنا وطلبوا منا ألا نُدخلَ في اللغة العربية أيّةَ مفردة من خارج المعاجم التي وضعها أسلافُنا منذ وقتٍ طويل، ونصّب هؤلاء العلماء من أنفسهم أوصياء أو حُرَّاسا على اللغة يحكمون بالخطأ على كلِّ من يخالف مفردة موجودة في المعاجم، أو يأتي بكلمة غير موجودة بها. إنّ هذه الوصاية ضيّقت على اللغة العربية الخناق، وجعلتها حبيسةً لتلك المعجمات؛ فلم يعد بإمكانها أن تتوسع أو تضيف إلى معاجمها ما توصّل إليه العلم الحديث من المسميات وأسمائها والمصطلحات التي ترافق المستحدثات، والمكتشفات التي ليس بإمكاننا الاستغناء عنها، أو عن أسمائها.

وعلى المجامع اللغوية العربية أن تحرِّرَ هذه اللغة من هذه القيود التي تضرُّ باللغة أكثر من أنْ تفيدها وذلك بالتوسع في مجال الترجمة، والتعريب بحيث يكون العمل بين المجامع عملا موحّدًا وملزِمًا لكلِّ الدول الناطقة بالعربية، ويكون ذلك تحت إشراف جامعة الدول العربية. على المجامع أن تقوم بتعريب المفردات الواردة إلى الوطن العربي واللغة العربية من اللغات الأخرى في أسرع وقت ممكن وذلك لئلا تتمكن هذه المفردات من التسرب إلى لساننا فيعتاد عليها ويُصبح من الصعب أو من المستحيل الإقلاع عنها مستقبلا. فالتعريب هو إخضاع المفردة غير العربية الأصل إلى اللغة العربية وزنا، وصرفا وبذلك تصبح هذه المفردة عربية بالتعريب والاستعمال، وهذا أفضل من أن تدخل هذه المفردة بوزنها الأعجمي وصرفها الأعجمي وتصبح داخل لغتنا جنسا غريبا لا يخضع لنواميس لغتنا، ولا لسجاياها، ولا وزنها، ولا موسيقاها ولا مبرِّر لوجودها إلا أنّ حراس اللغة العربية منعوا لغتهم من أن تنفتح على غيرها فتتغذى منه وتغذيه، وتُقْرِضُهُ وتقترضُ منه، فيزداد رصيدها من المتداول في اللغة اليومية ويقلُّ مخزونها من الألفاظ التي ماتت ولم تعد لغةً مستعملةً أو متداولة.

وقد وضع العلماء المتخصصون شروطا ومواصفات لنجاح اللفظ المعرب، كما وضعوا شروطا لضمان انتشاره، وتداوله١٥.

رابعًا ـ الإعلام العربي ودوره في النهوض باللغة العربية :

إنّ اللغة العربية هي الوسيلة التي يقوم عليها الإعلام والثقافة، اللذان يتمثلان في كلّ الوسائل المقروءة، والمسموعة، والمرئيّة في كلّ الوطن العربي. وما دامت اللغة العربية هي الوسيلة للإعلام والثقافة عندنا، فإنها، من دون شك، سيتعاطاها كلُّ العرب إمَّا مقروءة، أو مسموعة، أو مرئيّة. وهذا من شأنه أنْ يجعل اللغة في متناول العرب كبارا، وصغارا، متعلمين، أو أنصاف متعلمين، أو أميين ، ولذلك ينبغي على وسائل الإعلام أن تنهض بمستوى العربية التي تُقدِّمُها حتى تكون عاملا في انتشار اللغة الجيدة. فربما يكون من المفيد لأبنائنا الصغار أن يجدوا داخل الصحف، والمجلات منشورات، وكتيّبات صغيرة تُقدَّم لهم معلومةً في ثوب قشيب أنيق، وبلغة عربية بسيطة مُسليّة، وربما يكون أكثر إفادةً لو أننا عوّدْنا أبناءَنا على أن يستعيروا ما يُناسبهم من الكتب المطروحة للاستعارة من المكتبات العامة، ومكتبات المدارس التي يدرسون بها، ومن المراكز الثقافية القريبة منهم.

وربما يكون من أهم وسائل الإعلام في خدمة اللغة العربية تلك القنوات الفضائية التي أخذت تنتشر وتتزايد بشكل سرطانيّ ملحوظ. وبما أن الأطفال هم الشريحة التي تأخذ أطول وقتٍ أمامَ أجهزة التلفزة، فإنّ هذه الشريحة هي التي سيقع عليها التأثير سلبًا أو إيجابًا من هذه القنوات. فإذا كانت القنوات تبثُّ برامج ترفيهية بلغة عربية بسيطة وسهلة، فإن الأطفال سيتعلقون بها ويداومون على مشاهدتها فيكتسبون منها لغة عربية سليمة تكون لهم زادًا ورصيدًا في المستقبل. وأمّا إذا كان العكس، فإنهم لن يتعلموا منها إلا

ما لا يخدم اللغة العربية. ولئلا يقع أولادنا فريسة ولقمةً سائغةً لمخططات القضاء على القيم والأخلاق، ومخططات تدمير الشباب، والقضاء على القومية العربية، وطمس الهوية العربية من خلال تشويه لغتنا التي هي مكوِّنٌ من مكوِّنات القومية العربية، فإنّه من واجب جهات الاختصاص وذوي الشأن أن يحافظوا على القومية العربية وهويتها من خلال الحفاظ على لغتها.

والحفاظ على اللغة العربية من خلال القنوات الفضائية، يستوجب أن تكون للأطفال قنوات خاصة، وكثيرة، ومتنوعة منطلقة من أرضية عربية صحيحة، وليست استنساخا من قنوات غربية، وأن تكون برامج هذه الفضائيات ذات إنتاج جيد يشد المشاهد إليها، وأن تكون البرامج ترفيهية تحمل القيم، والمبادئ، والخصال الحميدة، وتكون بلغة عربية صحيحة وغير متقعِّرة، وأن تكون البرامج مقدّمة بلغة تتواكب مع عمر الطفل ومستواه التعليمي. كما يجب أن تكون هذه القنوات الفضائية قادرةً على استقطاب الصغار، والكبار من خلال إجراء مسابقات على الهواء تتعلق باللغة العربية؛ بحيث تُنظَّمُ لها بطولات شهرية، ثم نصف سنوية، ثم سنوية. ويجب أن تقوم هذه الفضائيات بتشجيع الكُتّاب، والمبدعين، والمنتجين لإنتاج مسلسلات، أو رسوم خاصة بالأطفال تعتمد على عنصر الإثارة، والتشويق، والترفيه، وتحتوي على القيم والأخلاق، وتُقَدَّمُ بلغة عربية بسيطة وسليمة، وقد يكون التركيز في مثل هذه البرامج على مَشاهِدَ من التاريخ العربي، أو الإسلامي المُشَرِّف، أو شخصيات مرموقة تمثّل العروبة والإسلام ، أو قصص من القرآن الكريم تبيّن الفرق بين الخير والشر، وبين فاعل هذا وفاعل ذاك، أو قصص من حياة بعض المشاهير وما أسدوه للبشرية قاطبة. وربما يقع عبءٌ من إنتاج مثل هذه البرامج على عاتق جامعة الدول العربية، أو اتحاد الإذاعات العربية للإسهام في تنفيذ هذه البرامج أو تمويلها كليًّا أو جزئيًا.١٦

مصادر البحث

١ ___ القرآن الكريم (برواية حفص عن نافع).
٢ ___ جمعية الترجمة وحوار الثقافات (عتيدة) على النت.
٣ ___ روبرت كوبر. التخطيط اللغوي، والتغير الأجتماعي. ترجمة الدكتور خليفة الأسود.
٤ ___ شريف الشوباشي. لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه.
٥ ___ عزمي بشارة. من محاضرة ألقاها في أكاديمية الدراسات العليا، طرابلس. بتاريخ ١١ يوليو ٢٠١٠.
٦ ___ مجلة الثقافة العربية ، الليبية ، العدد ٣٠٣ مارس ٢٠١٠.
٧ ___ علي القاسمي» انقراض اللغة العربية في القرن الحالي» في (عتيدة) على النت.
٨ ___ الطاهر خليفة القراضي « الفضائيات العربية: هل من دور تربوي؟ « مجلة العربي الكويتية. فبراير ٢٠٠٦.
٩ ___ الطاهر خليفة القراضي. مجلة الفصول الأربعة ، الليبية ، العدد ٨٦ يناير ١٩٩٩..
١٠ ___ مجلة مجمع اللغة العربية ، الليبي، (مجمعيات ندوات ٤) ٢٠٠٧.
١١ ___ محسن العبيدي. حول اللغة العربية (عتيدة) على النت.

الهوامش

١ عتيدة على النت .
٢ انظر مقال الدكتور علي القاسمي في عتيدة على النت بعنوان « انقراض اللغة العربية في القرن الحالي»، وكذلك انظر مجلة الثقافة العربية/ بنغازي، العدد ٣٠٣ مارس ٢٠١٠ ص. ١٦٠ .
٣ (انظر جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات. عتيدة على النت) .
٤ الآية ٣٢ سورة التوبة
٥ انظر روبرت كوبر التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي . ترجمة د . خليفة الأسود.ص. ٢٢٥
٦ محاضرة / أكاديمية الدراسات العليا / طرابلس ، ليبيا ١١ / ٠٧ / ٢٠١٠ .
٧ (جمعية الترجمة العربية : عتيدة على النت) .
٨ لغة المنتصر هي التي تسود وتنتشر .
٩عتيدة على النت .
١٠ عتيدة على النت .
١١ انظر عتيدة على النت .
١٢ انظر كتاب لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه .
١٣ انظر صفحة ٨ أعلاه من هذا البحث.
١٤ انظر مجلة الفصول الأربعة العدد ٨٦ يناير ١٩٩٩
١٥ انظر مثلا الندوة العلمية الرابعة ١٣٧٥ و.ر .٢٠٠٧ م. « صوغ المصطلح العلمي وتوحيده « مجمع اللغة العربية الليبي . مجمعيات ندوات ٤ ص . ٢٧٢ ـ٢٧٤ .
١٦ انظر مجلة العربي الكويتية عدد فبراير ٢٠٠٦ .